الشفاعة في الكتاب والسُنَّة بين الإثبات والنفي

د. طارق محمد عبد اللاه دياب المنشاوي

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين- القاهرة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الملك الحق المبين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وصفوته من خلقه ، وحبيبه وخليله، الصادق الوعد الأمين اللهم صل وسلم وزد وبارك عليه وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين

ثم أما بعد

فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون للحق أعداء منابذون له قد اتفقت مآربهم وإن اختلفت مشاربهم يلبسون الحق بالباطل بما أُوتوا من جدل فيظهر لمن يستمع إليهم أو يطلع على كتاباتهم أنهم منصفون لا يبغون إلا وجه الحق ،فمن ذلك قوم في القديم والحديث أنكروا الشفاعة ، فمنهم من أنكرها كلية ، ومنهم من أنكر بعض أنواعها

ولكن هيهات هيهات أن تنطلي أساليبهم الملتوية على أتباع الحق المنافحين عنه .

فالشفاعة تفضّل من الله تعالى ودعوة مستجابة لنبينا ادّخرها صلى الله عليه وآله وسلم لأهل الكبائر من أُمته.

وهي — كما دلّت عليه الأدلة — على أنواع، منها الشفاعة التي يختصُّ بها نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهناك شفاعة يشاركه فيها الأنبياء والشهداء والعلماء.

وهنا لا بدّ من التنبيه أيضاً إلى أنّ هذه الشفاعة المدّخرة لا ينبغي أن تُفهم فهماً خاطئاً فيتصور البعض أنّ بإمكانه التهاون بالواجبات والتساهل في المحرمات طمعاً في الشفاعة .

وهذه الدراسة قد تكفلت بإيضاح الأدلة على إثبات الشفاعة ووقوعها، وبمناقشة ما أُثير حولها من شبهات بأسلوب علمي مناسب، وقدّمت معالجة دقيقة، أرجو الله تعالى أن ينفع بها .

التمهيد

لا يختلف المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الشافع المشفّع يوم القيامة، وأن الشفاعة – في الجملة – ثابتة بالكتاب والسنة، واتفق أهل السنة والجماعة على إثباتها في أصحاب الكبائر الذين ماتوا ولم يتوبوا من ذنوبهم، في حين خالف المعتزلة والخوارج فيهم وقالوا: إن الشفاعة المذكورة في الكتاب والسنة ليست سوى رفع الدرجات وزيادة ثواب المشفوع فيهم من المؤمنين، أما أصحاب الكبائر فهم كفار في نار جهنم خالدون فيها أبدا، واستدلوا على ذلك بأدلة سأعرض لها بالنقد والتمحيص، ولكن قبل ذلك نورد من أدلة أهل السنة ما يتضح به صحة مسلكهم وسلامة منهجهم، وأن النص والإجماع معهم لا مع من خالفهم . لا شكّ أن الشفاعة حقيقة نطقت بها نصوص القرآن الكريم، وتواترت في السُنّة النبوية المطهّرة، وأكدها علماء الإسلام في دراساتهم العقيدية . ومن هنا فلا يسعُ مسلماً إنكارها، ومع ذلك فقد نجم في بعض العصور وخاصة في عصرنا الحالي من حاول إثارة الغبار حولها، والتشكيك فيها.

ونظراً لأهمية الموضوع، وبغية إزالة ما حصل من التباسات في فهم هذه المسألة، تصدّت هذه الدراسة لتتناول مفهوم الشفاعة والأمور المتعلقة بها .

وقد حاولت جهد الإمكان أن يكون تناولي للمسألة مستنداً إلى آيات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مما اتفق عليه المسلمون ورواه علماؤهم .

كما حاولت أن أقدم فهماً صحيحاً متوازناً بعيداً عن التطرف الذي قد أجده عند الرافضين لها أو عند القائلين بها .

لقد درست المسألة في جوانبها المختلفة

وقد تم تقسيم البحث إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول : مفهوم الشفاعة في اللغة والقرآن الكريم وعرض الآيات القرآنية المتعلقة بها والأحاديث النبوية .

الفصل الثاني : آراء العلماء من الفريقين السنّة والشيعة، وناقشت الإشكالات المثارة في المقام .

الفصل الثالث : مسالة الشفعاء والمشمولين بالشفاعة .

ولقد كان تناولي لذلك كله بأسلوب واضح، التزمت فيه أصول البحث العلمي، والمنهج السليم في العرض والتحليل .

ومن الله نستمد العون والتسديد

الفصل الأول
مفهوم الشفاعة وحقيقتها في القرآن والسنّة المطهّرة

أولاً : الشفاعة في اللغة والاصطلاح:-

في اللغة شَفَعَ شفعاً ، الشيء صيّره شفعاً أي زوجاً بأن يضيف إليه مثله، يقال كان وتراً فشفعهُ بآخر «أي قرنهُ به» .

وتقول «شُفِعَ لي الأشخاص» أي أرى الشخص شخصين لضعف بصري،

وشَفَعَ شفاعةً لفلان، أو فيه إلى زيد : طلب من زيد أن يعاونه وشفعَ عليه بالعداوة : أعان عليه وضادّهُ .

وتشفع لي وإليّ بفلان أو في فلان : طلب شفاعتي .

وأما التعريف الاصطلاحي فلم يخرج عن الدلالة اللغوية كثيراً، إذ الشفاعة هي : «السؤال في التجاوز عن الذنوب» (1)،

أو هي : «عبارة عن طلبه من المشفوع إليه أمراً للمشفوع له، فشفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو غيره عبارة عن دعائه الله تعالى لأجل الغير وطلبه منه غفران الذنب وقضاء الحوائج، فالشفاعة نوع من الدعاء والرجاء» (2).

ثانيا : الشفاعة في القرآن الكريم:-

وردت مادة الشفاعة في القرآن الكريم بعدة معاني نفياً وإثباتاً، فقد بلغ مجموع الآيات الشريفة التي تحدثت بصورة مباشرة عن هذا المفهوم خمسا وعشرين آية في ثماني عشرة سورة قرآنية شريفة .

والشفاعة الواردة في القرآن الكريم تتعرض كلها إلى الجانب الأول من المعنى الاصطلاحي وهو رفع العقاب عن المذنبين، وليس علو الدرجة والمقام .

ويتناول القرآن الكريم موضوع الشفاعة بالحديث عن محورين

الأول: يُحدد الشفعاء.

والثاني: يحدد الأفراد والمجموعات الذين تنالهم الشفاعة من جهة، والذين لا تنالهم الشفاعة من جهة ثانية .

والقرآن إذ يُحدد ذلك فإنّه يحددهم موضوعياً من خلال طبيعة السلوك العام للأفراد في الحياة الدُنيا.

---

(1) راجع : التعريفات للجرجاني : ٥٦ . والنهاية في غريب الحديث، لابن الأثير ٢ : ٤٨٥ والكليات، لأبي البقاء : ٥٣٦، وفيه (وأما المشفوع له فصاحب الكبيرة عندنا) .

(2) كشف الارتياب، للسيد محسن الأمين العاملي : ١٩٦

ولم يَرِد في القرآن الكريم ما ينفي الشفاعة بصورة مطلقة، بل الملاحظ هو أنّ النفي جاء بصورة خاصة متعلقاً بفئة معينة من الناس ممن حددهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأوصافهم،

والقرآن الكريم حين ينفي استحقاق مجموعة معينة من الناس للشفاعة فإنّه من جهة ثانية يؤكد وجودها لصنف آخر من الناس ممن يدخلون ضمن دائرة التعريف بـ «المؤمنين» .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَعِباً وَلَهواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنيَا وَذَكِّر بِهِ أَن تُبسَلَ نَفسٌ بِمَا كَسَبَت لَيسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌ وَلاشَفِيعٌ وَإِن تَعدِلْ كُلَّ عَدلٍ لا يُؤخَذ مِنهَا... ﴾[1] .

والاستثناء من نيل الشفاعة كما ورد في الآية الشريفة واضحٌ فهو ينصرف إلى الذينَ اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا .

أو قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقنَاكُم مِنْ قَبْلِ أن يَأتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شَفَاعَةٌ والكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2]

ومع أنّ الخطاب القرآني هنا موّجه بشكل خاص إلى المؤمنين (ياأيُّها الذين آمنوا...) إلا أن نفي الشفاعة في الآية الشريفة لم يكن نفياً مطلقاً بل هي بقرينة ذيلها، وهو قوله تعالى : ﴿ والكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ تدلّ على حرمان الكافرين من الشفاعة، غير أنّ الآية الكريمة جاءت لتقول للمؤمنين: إنّ الامتناع من الإنفاق في سبيل الله كفر، فيكون «الممتنع عن الإنفاق» محروماً من الشفاعة لكونه من علامات وصفات «الكافرين» هكذا قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية المباركة[3] .

والآية القرآنية الشريفة المتقدمة هي من أكثر الآيات القرآنية التي وقعت في موقع الاستدلال على نفي الشفاعة، وهذا الاستدلال على نفي مطلق الشفاعة صحيح لو لم تُعقب الآية بجملة ﴿والكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حيثُ كان فيها إيضاح بأنّ الذين لا ينفقون مما رزقهم الله في سبيله هم الذين لا تنالهم الشفاعة ، لأنهم يدخلون في عداد الكافرين بناء على ما تقدم .

---

(١) الأنعام : ٧٠ .
(٢) البقرة : ٢٥٤ .
(٣) الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي ٢ : ٣٢٣ .

ومن هنا فليس في القرآن الكريم نفي مطلق للشفاعة، وإنما يصحُّ أن يقال إنّ النفي الموجود في القرآن المجيد هو نفيٌ مقيد للشفاعة بقيد موضوعي فإذا ارتفع القيد ارتفع النفي .

وفي مقابل ذلك نجد أنّ القرآن الكريم زاخر بالآيات التي تؤكد وجود الشفاعة، مثل قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إلا تَأوِيلَهُ يَوْمَ يَأتِي تَأوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لنا مِنْ شُفَعَاء فَيَشفَعُوا لَنَا أو نُرَدُّ فَنَعمَلَ غَيرَ الَّذي كُنّا نَعمَلُ قد خَسِرُوا أَنفُسَهُم وَضَلَّ عَنْهُم ما كَانُوا يَفتَرُونَ ﴾[1] .

ومع أنّ الآية الكريمة تتحدث عن نموذج معين من الناس وهم الذين كانوا يفترون على الله الكذب، وهي تنفي أن تنالهم الشفاعة يوم القيامة لأنهم كما يقول القرآن قد (خَسِرُوا أنفُسَهُم) فإنّها توضح من جهة أخرى حقيقة وجود الشفاعة بحيثُ يطلبها هؤلاء فلا ينالونها أبداً

أو قوله تعالى: ﴿ لا يَملِكُون الشَّفَاعَةَ إلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمَنِ عَهْدًا ﴾[2] .

أو قوله عزّ شأنه : ﴿ يومئذ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحمنُ ورَضِيَ لَهُ قولاً ﴾[3]

وكقوله تعالى: ﴿ولا يَملِكُ الَّذِينَ يَدعُونَ مِنْ دُونه الشَّفَاعَةَ إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ وَهُم يَعلَمُونَ ﴾[4] .

وهذه الآيات الشريفة وغيرها كثير تصرّح بوجود الشفاعة يوم القيامة، غاية الأمر أنّ القرآن الكريم يصف الشفعاء بعدّة صفات، فمنهم ﴿مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمن عَهْدًا ﴾ ومنهم ﴿ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحمنُ ﴾ ومنهم ﴿مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ وهُمْ يَعلَمُونَ ﴾ وأصحاب هذه الصفات الثلاث وغيرها قد أعطاهم الله سبحانه وتعالى المنزلة العالية التي تجعلهم قادرين على أن يشفعوا فيمن يرتضي الرحمن شفاعتهم فيهم .

وخلاصة القول هي أنّ الشفاعة موجودة بصريح القرآن وغاية الأمر هي محدودة بحدود في طرف الشفعاء وفي طرف المشفع فيهم، وأنّها لا تنال قسماً من الناس .

---

(١) الأعراف : ٥٣ .
(٢) مريم : ٨٧ .
(٣) طه : ١٠٩
(٤) الزخرف : ٨٦ .

آيات نفي الشفاعة ومفهومها:

تقدم القول أن الشفاعة لم تنفَ مطلقاً، فالقرآن الكريم يصرّح بوجودها في أكثر من مكان وإنّما الذين لا تنالهم هم أصناف مختلفة جاءت الآيات القرآنية تبين الأسباب التي استحقوا من أجلها الحرمان من شفاعة الشافعين وهي كما يأتي:

١- كفر النعمة:

وعلى هذا الصعيد جاءت الآيات القرآنية الشريفة التالية:

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنوا أنفقوا ممَّا رزقْناكُم منْ قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلّةٌ ولا شفاعةٌ والكافرونَ هُمُ الظّالمونَ ﴾ (١) إذ المنفي هنا هو استحقاق الكافرين للشفاعة، وقد تقدّم عن (الميزان)(٢) بيان ذلك وهو: أنّ الاستنكاف عن الإنفاق مما رزق الله هو كفرٌ وظلمٌ، فإذا ما أُعيد عجز الآية ﴿والكافرونَ هُمُ الظّالمونَ﴾ إلى صدرها وهو ﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمنوا﴾ يتضح أنّ المقصود اعتبار الذين لا ينفقون مما رزقهم الله في سبيله من الكافرين، ولا ريب أنّ الكافرين لا تنالهم الشفاعة يوم الدين.

فالمنفي بحكم السياق استحقاق قسم خاص من النّاس، للسّبب المذكور، إذن، لا دلالة في الآية على نفي الشفاعة على الإطلاق.

٢ - اتباع الشيطان:

قوله تعالى: ﴿ يَقولُ الَّذينَ نَسُوهُ منْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بالحَقِّ فَهَلْ لنا منْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أو نُرَدُّ فَنَعمَلَ غَيْرَ الَّذي كُنّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِروا أنفُسَهُم وَضَلَّ عَنْهُم ما كانُوا يَفتَرُونَ ﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا فيها هُمْ والغاوُونَ * وَجُنُودُ إبليسَ أجْمَعُونَ * قالُوا وَهُم فيها يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إن كُنّا لَفي ضَلالٍ مُبينٍ * إذ نُسَوِّيكُم بربِّ العالَمينَ * وَمَا أضَلَّنا إلّا المُجرمُونَ * فَمَا لَنا منْ شَافِعينَ * وَلا صَديقٍ حَميمٍ ﴾ (٤).

٣ . التكذيب بيوم القيامة:

ولاحظ قوله تعالى عن الذين كذّبوا بيوم الدين وأنكروا القيامة والحساب: ﴿ وكُنّا نُكَذِّبُ بيَومِ الدّين * حَتّى أتانا اليَقينُ * فَمَا تَنفَعُهُم شَفاعةُ الشَّافعينَ.. ﴾ (٥).

(١) البقرة : ٢٥٤
(٢) انظر ص٥ تحت عنوان «الشفاعة في القرآن الكريم».
(٣) الأعراف : ٥٣.
(٤) الشعراء : ٩٤ ـ ١٠١.
(٥) المدثر : ٤٦ ـ ٤٨.

٤. اتخاذ الدين لهواً ولعباً:

أما الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً فيخبر سبحانه وتعالى عن حالهم يوم القيامة بقوله عزَّ شأنه ﴿ وَذَرِ الَّذينَ اتَّخذُوا دينَهُم لَعِباً وَلَهواً وغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنيا وذَكِّر به أن تُبسَلَ نَفسٌ بما كَسَبَت لَيسَ لَها من دُونِ اللهِ وَليٌّ وَلا شَفيعٌ وإن تَعدل كُلَّ عَدلٍ لا يُؤخَذ منها أُولئكَ الَّذينَ أُبسِلُوا بما كَسَبُوا لَهُم شَرابٌ مِنْ حَميمٍ وَعَذابٌ أليمٌ بما كانُوا يكفرونَ.. ﴾ (١).

٥. الظلم:

فيقول عنهم سبحانه وتعالى: ﴿ وأنذِرْهُم يَوْمَ الآزفةِ إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَناجرِ كَظمينَ مَا للظَّالمينَ مِنْ حَميمٍ وَلا شَفيعٍ يُطَاعُ.. ﴾ (٢).

٦. الشرك:

ينص صريح القرآن على حرمان المشركين من شفاعة الشافعين يوم القيامة حيثُ لا ينفعهم شركاؤهم الذين عبدوهم من دون الله . يقول عزّ شأنه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُم وَلا يَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هؤلاءِ شُفَعاؤُنا عندَ اللهِ قُلْ أتُنبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ في السَّموات ولا في الأرضِ سُبحَانَهُ وتَعالى عَمَّا يُشركُونَ ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَم يَكُنْ لَهُم مِّن شُرَكائهم شُفعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِم كافِرينَ ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نَرى مَعَكُم شُفَعاءَكُمُ الَّذينَ زَعَمْتُم أنَّهُم فيكُم شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُم وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُم تَزْعُمُونَ ﴾ (٥)

وقوله تعالى شأنه: ﴿ أم اتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعاءَ قُلْ أولَوْ كَانُوا لا يَمْلكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقلُونَ ﴾ (٦).

وقوله سبحانه: ﴿ أأتَّخذُ مِنْ دُونه آلهةً إن يُردْنِ الرَّحمنُ بضُرٍّ لا تُغْنِ عَنّي شَفَاعَتُهُم شَيْئاً وَلا يُنقذُونِ ﴾ (٧).

ويظهر أنّ آيات نفي الشفاعة عن المشركين تؤدي وظيفتين:

الأولى: تؤكد أنّ الشركاء أصناماً أو غيرها لا تملك لمن يؤمن بها شيئاً تقدمه له يوم القيامة مع استحقاقه للعذاب بسبب الشرك، ولهذا فإنّ تلك الآيات تنفي قدرة الشركاء على تقديم الشفاعة..

(١) الأنعام : ٧٠
(٢) غافر : ١٨
(٣) يونس : ١٨.
(٤) الروم : ١٣.
(٥) الأنعام : ٩٤.
(٦) الزمر : ٤٣.
(٧) يس: ٢٣.

والوظيفة الثانية: هي أنّ المشركين بالله محرومون من شفاعة الشافعين لأنهم لا يستحقونها.

ومما تقدم يتضح أنّ الآيات الشريفة المارة كلّها ركّزت على مفاهيم واضحة للشفاعة وحددت أولئك الذين لا تنالهم الشفاعة يوم القيامة، فالمفاهيم الخاصة التي تدور حولها الآيات الشريفة المارة هي مفاهيم الكفر والشرك بشتى أنواعهما وأصنافهما، وأنّ الكافر والمشرك لن يجد يوم القيامة من يشفع له ممن أذن الله لهم بالشفاعة.

ومن هنا يتضح أنّ نفي الشفاعة في القرآن الكريم ليس نفياً مطلقاً، بل هو نفي خاص لمجاميع خاصة حدد الله صفاتهم وأعمالهم في الحياة الدنيا.

ثالثا: الشفاعة في السنّة المطهّرة.

إنّ مسألة الشفاعة قد تختلف عن الكثير من المسائل العقائدية الأُخرى، التي كثر الجدل والكلام حولها، في أنّها جاءت بعبارات واضحة وصريحة في القرآن الكريم كما وردت أيضًا بعبارات واضحة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهي على النحو التالي:

١ ـ عن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أُعطيتُ خمساً لم يعطهنّ أحدٌ قبلي... وأُعطيت الشفاعة ولم يعطَ نبي قبلي...»(١).

٢ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ... «فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»(٢).

٣ ـ قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: ... «اشفعوا تُشفّعوا ويقضي الله عزّ وجل على لسان نبيه ما شاء»(٣).

٤ ـ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أوّل شفيع في الجنة...»(٤).

٥ ـ عن كعب الأحبار ونفس الحديث عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لكل نبي دعوة يدعوها فأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»(٥).

---

(١) سنن النسائي ١ : ٢١١ . صحيح البخاري ١ : ٨٦ ـ ١١٣ .

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٣٢٧ ح ٥٧٧ وقال الألباني صحيح .

(٣) سنن النسائي ٥ : ٧٨

(٤) صحيح مسلم ١ : ١٣٠ .

(٥) صحيح مسلم ١ : ١٣٠ ـ ١٣٢ . صحيح البخاري ٧ : ١٤٥ و ٨ : ١٩٣ . مسند أحمد ٢ : ٣١٣، ٣٩٦ .

٦ ـ عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أُعطيت خمساً لم يعطهنّ نبي قبلي ولا أقولهن فخراً بُعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونُصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُعطيت الشفاعة فاخرتها لأمتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً»(١).

٧ ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليّ فإنّه من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأله لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة»(٢).

٨ ـ جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الشفاعة»(٣).

---

(١) مسند أحمد ١ : ٣٠١ إسناده ضعيف لضعف يزيد الهاشمي لكنه متابع وباقي رجاله رجال الصحيح .

(٢) مسند أحمد ٢ : ١٦٨ وإسناده صحيح على شرط مسلم .

(٣) صحيح البخاري في قول الله (وجوه يومئذ ناضرة) حديث رقم ٦٨٨٦ .

٩ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيتُ ما تلقى أُمتي بعدي... فسألت أن يوليني شفاعة يوم القيامة فيهم ففعل»(٤).

١٠ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليخرجنّ قوم من أُمتي من النار بشفاعتي يسمّون الجهنميين»(٥).

١١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «شفاعتي نائلة إن شاء الله من مات ولا يشرك بالله شيئاً»(٦).

وهذه الأحاديث وغيرها الكثير تدل بما لا يدع مجالاً للشك، أنّ مسألة القول بالشفاعة لدى المسلمين قد نشأت معهم وكوّنت جزءاً من ثقافتهم وعقيدتهم الإسلامية، وقد أقرّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام ذلك الإيمان.

فهناك دلائل تاريخية توضح اهتمام المسلمين في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بطلب شفاعته لهم

---

(٤) مسند أحمد ٦ : ٤٢٨ حديث صحيح رجاله رجال الشيخين .

(٥) سنن الترمذي ٤ : ١١٤ . وسنن ابن ماجة ٢ : ١٤٤٣ وقال الترمذي حسن صحيح ، والألباني صحيح .

(٦) مسند أحمد ٢ : ٤٢٦ . وهو صحيح على شرط الشيخين ورواه مسلم ١ / ٤٥٩ ح ٢٩٦.

يوم القيامة، فقد روي عن أنس بن مالك عن أبيه قوله : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «أنا فاعل» قال، قلت: يا رسول الله فأين أطلبك ؟، فقال : «اطلبني أول ما تطلبني على الصراط»(١).

جاء في متن الواسطية : (وأول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته، وله صلى الله عليه وآله وسلم في القيامة ثلاث شفاعات: أما الشفاعة الأولى، فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه . وأما الشفاعة الثانية فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له، وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها)(٢).

(١)سنن الترمذي٤:٦٢١ كتاب صفة القيامة الباب٩ وقال : حسن غريب . وقال الألباني صحيح .

(٢) متن العقيدة الواسطية، لابن تيمية : ٥٨ — ٥٩، نشر مكتبة السوادي، السعودية.

جاء في السيرة النبوية للحلبي «إنّ أبا بكر أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته فكشف عن وجهه وأكبَّ عليه وقال «بأبي أنت وأُمي طبت حياً وميّتاً، اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن في بالك»(٣).

دلائل الشفاعة :

أدلة الشفاعة الواردة في القرآن أدلة عامة غير مفصلة، تدل بمجملها على ثبوت الشفاعة يوم القيامة، وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بذلك، فمن تلك الأحاديث:

١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة – إن شاء الله – من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا) رواه مسلم(٤). ولا شك أن من زنى أو سرق أو شرب الخمر لم يشرك بالله فهو ممن تناله الشفاعة إن شاء الله .

(٣) السيرة النبوية، للحلبي ٣ : ٤٧٤ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٤٩٦/١ حديث ٢٩٦- باب اختباء النبي ﷺ .

٢- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم – أو قال – بخطاياهم، فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر – أي جماعات – فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل) رواه مسلم(١).

٣- حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي) رواه أبو داود وابن ماجة(٢).

٤- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير) رواه البخاري ومسلم(٣).

٥- حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتدرون ما خيرني ربي الليلة، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه خيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة، قلنا يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها، قال: هي لكل مسلم) رواه ابن ماجة(٤).

فهذه الأحاديث وغيرها تثبت صراحة الشفاعة في أهل الكبائر، إلا أن المخالفين ردوا هذه الأحاديث بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تثبت بها العقائد، وأنها على فرض صحتها محمولة على رفع الدرجات وزيادة الثواب .

والجواب عن ذلك أن يقال: كيف يصح حمل الشفاعة في الأحاديث السابقة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤٣٠/١ حديث ٢٧١- باب إثبات الشفاعة.

(٢) سنن أبي داود ٣٥١/١٢ حديث ٤١١٤- وسنن ابن ماجة ٣١٥/٥ حديث ٤٣٠٠- وقال الترمذي حسن صحيح غريب .

(٣) أخرجه البخاري ٧٧/١ حديث ٤٢- باب زيادة الإيمان ونقصه. وأخرجه مسلم في صحيحه ٤٣٩/١-٤٤٦ حديث ٢٨٥، ٢٧٨- باب أدنى أهل الجنة منزلة.

(٤) سنن ابن ماجة ٣٢٣/٥ حديث ٤٣٠٨ وهو صحيح على شرط مسلم.

وهي مصرحة بخروج المذنبين من النار، وأن خروجهم يكون بشفاعة الشافعين، وأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، كل ذلك يرد هذا التأويل ويبطله، أما دعوى أن أحاديث الشفاعة أحاديث آحاد فدعوى مردودة على أصحابها، إذ قد نص أهل العلم على تواترها، وممن نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن حجر العسقلاني ، و السخاوي ، والقاضي عياض وغيرهم، ويقول الإمام الباقلاني في تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل:" والأخبار في الشفاعة أكثر من أن يؤتى عليها، وهي كلها متواترة متوافية على خروج الموحدين من النار بشفاعة الرسول وآله، وإن اختلفت ألفاظها .. وقد أطبق سلف الأمة على تسليم هذه الرواية وصحتها مع ظهورها وانتشارها، والعلم بأنها مروية من الصحابة والتابعين، ولو كانت مما لم تقم الحجة بها لطعن طاعن فيها بدفع العقل والسمع لها على ما يقوله المعتزلة، ولكانت الصحابة أعلم بذلك وأشد تسرعا إلى إنكارها، ولو كانوا قد فعلوا ذلك أو بعضهم لظهر ذلك وانتشر ولتوفرت الدواعي على إذاعته وإبدائه، حتى ينقل نقل مثله، ويحل العلم به محل العلم بخبر الشفاعة، لأن هذه العادة ثابتة في الأخبار، وفي العلم بفساد ذلك دليل على ثبوت خبر الشفاعة وبطلان قول المعتزلة " ا.هـ[1]

ويؤيد ما سبق ما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني من أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا ينكرون على من أنكر الشفاعة، حيث ذكر من الآثار ما يؤيد ذلك فقال: " إن الخوارج – الطائفة المشهورة المبتدعة – كانوا ينكرون الشفاعة، وكان الصحابة ينكرون إنكارهم، ويحدثون بما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأخرج البيهقي في البعث من طريق شبيب بن أبي فضالة قال: ذكروا عند عمران بن حصين الشفاعة، فقال رجل: إنكم لتحدثوننا بأحاديث لا نجد لها في القرآن أصلا، فغضب وذكر له – ما معناه – إن الحديث يفسر القرآن، وأخرج سعيد ابن منصور بسند صحيح عن أنس قال: من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها، وأخرج البيهقي في البعث .. عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: خطب عمر رضي الله عنه فقال: إنه سيكون في هذه الأمة قوم يكذبون بالرجم، ويكذبون بالدجال، ويكذبون بعذاب القبر،

(1) التحرير والتنوير لابن عاشور ١ / ٤٨٧.

ويكذبون بالشفاعة، ويكذبون بقوم يخرجون من النار . ومن طريق أبي هلال عن قتادة قال: قال أنس : " يخرج قوم من النار، ولا نكذب بها كما يكذب بها أهل حروراء يعني الخوارج " ا.هـ[1]

ومن خلال ما نقله الحافظ رحمه الله تعالى يتضح أن مسألة التكذيب بالشفاعة مسألة قديمة تصدى لها الصحابة رضوان الله عليهم، وبينوا زيفها وبطلانها.

ومع ذلك تمسك الخوارج والمعتزلة بنفي الشفاعة، واستدلوا بظواهر آيات من القرآن الكريم تنفي الشفاعة بإطلاق، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾[2]

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾[3]، وبقوله: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾[4]

وبقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[5]

وبقوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[6] .

والجواب على هؤلاء أن مقتضى الفقه في الدين، واتباع سبيل المؤمنين هو الأخذ بمجموع ما ورد في الكتاب والسنة وعدم اجتزاء نصوصهما، وعدم الأخذ ببعض الكتاب والإعراض عن بعض، فإن ذلك دليل هوى ومسلك زيغ .

ونصوص الشفاعة الواردة في الكتاب على أقسام:

القسم الأول: نصوص ترجع الشفاعة لله، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[7]

القسم الثاني: نصوص تنفي الشفاعة بإطلاق، كالآيات التي استدل بها من أنكر الشفاعة .

(1) فتح الباري: (١١/٤٣٤).
(2) المدثر: (٤٨).
(3) البقرة: (٤٨)
(4) البقرة: (١٢٣)

(5) البقرة : (٢٥٤)
(6) غافر (:١٨)
(7) الزمر (:٤٤).

القسم الثالث: نصوص تنفي انتفاع الكافرين بالشفاعة، كقوله تعالى:﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾(١)

القسم الرابع: نصوص تثبتها بقيود وتشترط لها شروطا، كقوله تعالى:﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾(٢)، وقوله:﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾(٣) وقوله:﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾(٤)

وقوله:﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾(٥).

ومجمل هذه الشروط التي تدل عليها الآيات السابقة هي: إيمان الشافع والمشفوع له، ورضا الله عنهما، وإذنه بالشفاعة.

ولا شك أن مسلك أهل العلم هو الجمع بين تلك الآيات وعدم اجتزائها أو الاستدلال ببعضها دون بعض، وعليه فالآيات التي تثبت أن الشفاعة لله جميعا لا إشكال فيها إذ مرد الأمر كله لله من قبل ومن بعد.

وأما الآيات التي تنفي الشفاعة بإطلاق فهي من المطلق المقيَّد، وتقييدها يكون بالآيات التي تثبتها بشروط، وتبقى الآيات التي تنفي انتفاع الكافرين بالشفاعة موافقة لعموم نفي الشفاعة، وهذا لا إشكال فيه، وبه تجتمع الآيات ولا تفترق وتأتلف ولا تختلف.

وهذا الجمع بين الآيات هو ما قرره العلماء ، يقول العلامة ابن الوزير اليماني في الروض الباسم: "قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ ﴾(٦)، فأطلق نفي الخلّة والشفاعة في هذه الآية عن كلّ أحد، ثم قيده في قوله تعالى:﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾(٧)، وقال تعالى:﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾(٨)، فأثبت

(١) المدثر: (٤٨)
(٢) مريم: (٨٧)
(٣) طه: (١٠٩)
(٤) سبأ: (٢٣)
(٥) الأنبياء: (٢٨)
(٦) البقرة:٢٥٤
(٧) الزخرف:٦٧
(٨) الأنبياء: ٢٨

الخلّة والشّفاعة لمن اتّقى، ولمن ارتضى بعد أن نفاهما مطلقاً، وكذلك ما ورد في خروج أهل الإسلام من النار من صحيح الأخبار"، قال شيخ الإسلام ابن تيمية جوابا على من أنكر الشفاعة لأهل الكبائر بناء على الآيات السالفة: "وجواب أهل السنة أن هذا يراد به .. أنها لا تنفع المشركين كما قال تعالى في نعتهم:﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا ". ويقول العلامة الشنقيطي في أضواء البيان في تفسير قوله تعالى:﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(١)

قال : "﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقا يوم القيامة، ولكنه بيّن في مواضع أخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السماوات والأرض . أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع "(٢).

واحتج الخوارج والمعتزلة أيضا على إنكار الشفاعة بأن مرتكبي الكبائر كفار مخلدون في نار جهنم، لا يخرجهم الله من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا بغيرها .

وبهذا أكون قد أوضحت بالدليل والبرهان، أن الشفاعة ثابتة لعصاة الموحدين، وأنه ليس مع من أنكرها دليل عقلي أو نقلي صحيح.

ومما يجدر التنبيه عليه في هذا المقام أن المسلم وإن أثبت الشفاعة في أهل الكبائر وآمن بها، فلا ينبغي أن يكون إيمانه بالشفاعة سببا في تهاونه في ارتكاب المعاصي والآثام، فإن يوما واحدا في نار جهنم ينبغي للعاقل أن يعمل له من العمل الصالح ما ينجيه منه، وأن يبتعد عما يقربه إليه والله أعلم.

(١) البقرة: (٤٨)

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ١ / ٤٠ .

الفصل الثاني

الشفاعة عند علماء المسلمين

يكاد يجمع علماء المسلمين على وجود الشفاعة وأنها تنال المؤمنين.. لكن بعضهم ناقش في سعة المفهوم وضيقه، ففيما يجمع أغلب أئمة الفرق والمذاهب الإسلامية على أنّ الشفاعة تنفع في دفع الضرر والعذاب.

أولاً : آراء وأقوال العلماء حول مفهوم الشفاعة :

١ ــ قال الشيخ المفيد محمد ابن النعمان العكبري (ت ٤١٣ هـ) :

« اتفقت الإمامية على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأنّ أئمة آل محمد عليهم السلام كذلك، وينجي الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين » .

وقال في مكان آخر : «ويشفع المؤمن البرّ لصديقه المؤمن المذنب فتنفعه شفاعته ويشفّعه الله . وعلى هذا القول إجماع الإمامية إلاّ من شذّ منهم» [1].

٢ ــ وقال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في تفسيره (التبيان) : «حقيقة الشفاعة عندنا أنْ تكون في إسقاط المضار دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيشفّعه الله تعالى ويسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصراط لما رُوي من قوله عليه السلام : «ادّخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» [2].

والشفاعة ثبت عندنا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكثير من أصحابه ولجميع الأئمة المعصومين وكثير من المؤمنين الصالحين...» [3].

٣ ــ وقال العلامة المحقق الفضل ابن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) :

«... وهي ثابتة عندنا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأصحابه المنتجبين والأئمة من أهل بيته الطاهرين عليهم السلام ولصالحي المؤمنين وينجّي الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين..» [4].

---

(١) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، للشيخ المفيد : ٢٩ تحقيق مهدي محقق.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، ٣٢٠/١١، وفيه حرب بن سريج وقد وثقه غير واحد، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) التبيان، للشيخ الطوسي : ٢١٣ ــ ٢١٤ .

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسي : ١٠٣ .

٤ ــ ويقول العلاّمة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١٠ هـ) :

«أما الشفاعة فاعلم أنه لا خلاف فيها بين المسلمين بأنّها من ضروريات الدين وذلك بأنّ الرسول يشفع لأمته يوم القيامة، بل للأمم الأخرى، غير أنّ الخلاف هو في معنى الشفاعة وآثارها، هل هي بمعنى الزيادة في المثوبات أو إسقاط العقوبة عن المذنبين ؟

والشيعة ذهبت إلى أنّ الشفاعة تنفع في إسقاط العقاب وإن كانت ذنوبهم من الكبائر، ويعتقدون بأنّ الشفاعة ليست منحصرة في النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام من بعده، بل للصالحين أن يشفعوا بعد أن يأذن الله تعالى لهم بذلك...» [1].

ما تقدم كان نماذج من أقوال علماء الشيعة الإمامية حول الشفاعة معنىً وحدوداً، أما علماء المذاهب الإسلامية الأخرى فقد أقرّوا بالشفاعة والإيمان بها، وأنقل فيما يلي نماذج من آراءهم وأقوالهم.

١ ــ الماتريدي السمرقندي (ت ٣٣٣ هـ) :

عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنْ ارْتَضَى..﴾ [3].

«إنّ الآية الأُولى وإن كانت تنفي الشفاعة، ولكن هنا شفاعة مقبولة في الإسلام وهي التي تشير إليها هذه الآية» [4] ويقصد بها الآية ٢٨ من سورة الأنبياء.

٢ ــ أبو حفص النسفي (ت ٥٣٨ هـ):

يقول في عقائده المعروفة بــ (العقائد النسفية) : «الشفاعة ثابتة للرُسلِ والأخيار في حق الكبائر بالمستفيض من الأخبار» [5].

٣ . ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندري المالكي

يقول في الانتصاف «وأما من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها، وأما من آمن بها وصدّقها وهم أهل السنّة

---

(١) بحار الأنوار، للشيخ المجلسي ٨: ٢٩ ــ ٦٣.

(٢) البقرة : ٤٨ .

(٣) الأنبياء : ٢٨ .

(٤) تأويلات أهل السنّة، لأبي منصور الماتريدي السمرقندي : ١٤٨ .

(٥) العقائد النسفية، لأبي حفص النسفي : ١٤٨.

والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله، ومعتقدهم أنّها تنال العصاة من المؤمنين وإنّما اُدخرت لهم...»(١).

٤ ــ القاضي عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ):

«مذهب أهل السُنة هو جواز الشفاعة عقلاً ووجودها سمعاً بصريح الآيات وبخبر الصادق، وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السُنة عليها...»(٢).

وقد ذهب الكثير من علماء المسلمين إلى حقيّة وجود الشفاعة مما لايسع في هذا البحث الموجز حصره من أقوالهم وآرائهم لضيق المجال.

ويتضح مما تقدم، أنّ الشفاعة ـــ واعتماداً على نصوص القرآن الكريم الصريحة والأحاديث الشريفة المتواترة المنقولة عن النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام ـــ هي من القضايا المقبولة عند أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية، مع وجود من يناقش في معنى الشفاعة، فقد رفض المعتزلة الشفاعة وناقشوا فيها.. حيثُ يقول أحد أعلامهم وهو أبو الحسن الخياط وهو يفسر قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ...﴾(٣): «إنّ الآية تنص على أنّ من استحق العذاب لا يمكن للرسول أن ينقذه من جهنم..» وفي ردّ ذلك يقول الشيخ المفيد رضي الله عنه: «إنّ القائلين بالشفاعة لا يدّعون بأنّ الرسول هو المنقذ للمستحقين النار وإنّما الذي يدّعونه إنّ الله سبحانه ينقذهم منها إكراماً لنبيّه والطيبين من أهل بيته عليهم السلام.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فإنّ المفسرين يذهبون إلى أنّ الذين حقت عليهم كلمة العذاب هم الكفار، وإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يشفع لهم»(٤) ومن هنا يكون هذا الاحتجاج بالآية الشريفة الآنفة على نفي الشفاعة احتجاجاً غير صحيح.

---

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، للإمام ناصر الدين الإسكندري المالكي المطبوع بهامش الكشاف ١ : ٢١٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي باب / اثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ٣ : ٣٥.

(٣) الزمر : ١٩.

(٤) الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، لهاشم معروف الحسني : ٢١٢ ـــ ٢١٣ نقلاً عن الفصول المختارة : ٥٠.

ثانياً: إشكالات وردود:

مع وضوح الشفاعة كمفهوم ثابت في القرآن الكريم، فإنّ تطوّر المسائل الكلامية عند المسلمين أدّت إلى أن يثور الجدل حول هذا المفهوم من جوانب متعددة، ومن ثم إيراد الإشكالات عليه، وهي إشكالات تنبع عادة من خلال الثوابت التي يؤمن بها كل فريق من الفرق الإسلامية التي ناقشت هذا المفهوم. ونورد أهم الإشكالات التي أُثيرت هنا ثم نناقشها ونبيّن بطلانها وفسادها كما يأتي:

ــ الإشكال الأول:

ــ إنّ (نفس الذنب) الذي قد يرتكبه المؤمن يرتكبه الكافر، وإنّ الله سبحانه وتعالى قد وضع سُنّة العقاب والثواب جزاءً لأفعال عباده، وإنّ رفع العقاب عن المؤمنين المذنبين بواسطة الشفاعة، وإنزاله على غيرهم من الكافرين، مُخلّ بعدالته (سبحانه وتعالى عن ذلك عُلّواً كبيراً) وهذا الإشكال يمكن أن نسميه بـ «مشكلة الاثنينية في الجزاء مع وحدة الذنب».

والجواب عليه:

لابدّ من بيان: هل الذنب من المؤمن والكافر واحد؟ وهل أنّ قبول الله لشفاعة الشافعين بالمؤمن المذنب وحرمان الكافر منها اثنينية في الجزاء أم لا؟

لا ريب أنّ الذنب من أي شخص ولأي شخص كان يقتضي استحقاق الذم والعقاب، كما أن الإطاعة من أي شخص كان ولأي شخص كانت تقتضي الثواب والمدح، وإلاّ لم يبق فرق بين المطيع والعاصي.

إلاّ أنّ الله سبحانه فرّق ـــ وكلامنا فعلاً في المعصية ـــ بين ما إذا كانت من مؤمن به، وما إذا كانت من كافر، فجعل الشفاعة للمؤمنين العصاة كما فتح لهم باب التوبة، وأمّا الكافرون فإنّ نيلهم الشفاعة أو قبول التوبة من الذنوب معلّق على أصل الإيمان بالله عزّ وجل.. ثمّ كالحسنات، فإنّهم ما لم يؤمنوا لا يثابون عليها أبداً.

فصحيحٌ أنّ «الكذب» مثلاً الصادر من المؤمن والصادر من الكافر واحد، إلا أنهما يختلفان حكماً، وقد دلّت على هذا الاختلاف الأدلة الواردة من قِبَل نفس المولى الذي اعتبر الكذب معصيةً له، وهي الأدلة التي فرّقت بين المؤمن والكافر. فهذا الإشكال إنّما نشأ ـــ في الحقيقة ـــ من توهّم وحدة الذنب، وقد بيّنا أنّه يختلف ويتعدد باختلاف صاحب الذنب،

وبهذا اللحاظ يختلف الحكم بجعل من المولى نفسه.

إنّ القرآن الكريم، في آياته الشريفة، قد صنّف موقف الناس يوم القيامة إلى عدة أصناف، فهناك مؤمنون، وهناك كافرون. والكافرون هم أولئك الذين لم يؤمنوا بالله في الحياة الدنيا أو أشركوا بعبادته أحداً، ومثل هؤلاء لا تنالهم الشفاعة بصريح القرآن: ﴿... أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَملكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ﴾(١)

أو قوله تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ..﴾(٢).

وواضح أن الخلود في النار يتنافى مع مفهوم الشفاعة.. كما نجد آيات أُخرى تؤكد على ذلك.

إنّ ما قرّره الله سبحانه وتعالى من جزاء للمؤمنين والكافرين هو من مختصاته سبحانه وتعالى، وإنّ الوعد بالثواب للمؤمنين والوعيد بالعقاب للكافرين والمشركين هو أمر ثابت لا يتخلف عنه الحكم الإلهي، حيثُ لم ترد في كلّ القرآن الكريم آية واحدة تدلّ على أنّ للكافرين فرصة لنيل الشفاعة يوم القيامة بل هم خالدون في النار.

ومن هنا فإنّ حرمان الكافرين من الشفاعة يوم القيامة ليس تخلفاً عن الحكم الإلهي، بل هو وفاء للوعيد الذي سبق أن أخبر به الله سبحانه وتعالى الكافرين على لسان أنبيائه ورُسله.

أما المؤمن فإنّه قد فتح له باب التوبة، فقد يرتكب ذنباً «فيتوب منه»، وتوبته تصحُ بالندم على ارتكاب الفعل وبالتالي تركه وعدم العودة إليه؛ لأنّ الندم على ارتكاب الذنب يستدعي ترك العودة إليه، وإلاّ فإنّ العودة إلى الذنب تعني الإصرار عليه، فإذا مات مذنباً أمكن أن يغفر له بالشفاعة التي وعدها الله للمؤمنين، وعلى هذا الأساس يكون قبول الشفاعة في المؤمنين المذنبين وعدم قبولها في الكافرين، وفاءً للوعد الإلهي الذي جاء على لسان الأنبياء والمرسلين.

وهنا نقدم نماذج من القرآن الكريم لكلّ من الوعدين:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ

---

(١) الزمر: ٤٣.
(٢) البقرة: ٢٥٧.

فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ..﴾(٢).

وهاتان الآيتان توضحان بجلاء حقيقة الوعد الإلهي لمن مات وهو كافر، وهو الخلود في النار، ومعلوم أنّ الخلود في النار يتناقض تماماً مع مفهوم الشفاعة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿.. فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

وهناك آيات كثيرة أُخرى تحدثت عن التوبة.

وبعد هذه الشواهد نقول ردّاً على الإشكال المتقدم، إنّ الاثنينية في الجزاء إنّما جاءت بتبع الاثنينية في الذنب، ويتلخص الجواب في عدم الوحدة في الذنب، فإنّ المولى قرّر وأخبر منذ البدء عن الفرق في تعامله بين المؤمن والكافر بالنسبة إلى الذنوب الصادرة منهما، وعلى أساس ذلك كان الكافر محروماً من الشفاعة في الآخرة بخلاف المؤمن فقد تناله، كما تقبل التوبة من ذنوبه إذا تاب. فكان جزاء كلّ منهما في الآخرة مطابقاً لما قرّره وأخبر به الناس على لسان الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ شفاعته لا تنال من أشرك بالله عزّ وجل وإنما تنال غير المشركين، فقد روى أبو ذر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلّى ليله فقرأ آية حتى أصبح، يركع بها ويسجد بها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٥)، فلما أصبح قلت: يا رسول الله مازلت تقرأ هذه الآية حتى

---

(١) البقرة: ١٦١ ـ ١٦٢.
(٢) البقرة: ٢١٧.
(٣) النساء: ١٧.
(٤) المائدة: ٣٩.
(٥) المائدة: ١١٨.

أصبحت تركع بها وتسجد بها، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «...إني سألت ربي عزّ وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها فهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عزّ وجل شيئاً»[1].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «شفاعتي لمن شهد أنْ لا إله إلاّ الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه..»[2].

الإشكال الثاني:

إنّ رفع العقاب عن المذنبين يوم القيامة بعد أن أثبته الله بالوعيد به «أي لعقاب» يوم القيامة إما أن يكون عدلاً يكون ظلماً.

فإن كان رفع العقاب عدلاً كان الحكم بالعقاب ظُلماً «تعالى الله عنه علواً كبيراً».

وإن كان رفع العقاب ظلماً، فإنّ طلب الأنبياء والمرسلين والصالحين للشفاعة، هو طلبٌ للظلم وهذا جهلٌ لا تجوز نسبته إليهم عليهم السلام وهم المرسلون الذين عصمهم الله من الخطأ والزلل.

والجواب عليه:

وهو إشكالية التعارض بين أن يكون رفع العقاب (عدلاً) فالعقوبة الناتجة عن الذنب (ظلم) لا يجوز على الله سبحانه وتعالى، وبين أن يكون رفعه (العقاب) ظلماً ــ بعد أن تقدّم الوعيد به في الحياة الدنيا ــ فإنّ طلب الأنبياء أو الشفعاء بشكل عام، يُعَدّ طلباً للظُلم، وهم أبعد وأسمى من ذلك.

قد ذكرت أنّ الذنب من المؤمن ليس علةً تامةً لوقوع العقاب عليه، وإنما هو مقتضٍ للعقاب، فإن حصل هناك ما يمنع من وقوعه من الموانع التي قررّها المولى نفسه كالتوبة والشفاعة ارتفع العقاب، وإلاّ أثّر الذنب أثره.

وعلى هذا، فإنّ عقاب الله سبحانه للعبد المؤمن المذنب عين العدل، كما أنّ إعطاء الثواب للعبد المؤمن المطيع عين العدل، فلولا استحقاق العاصي للعقاب لم يبق فرق بينه وبين المطيع، إلاّ أنّ هذا الاستحقاق قد لا يصل إلى مرحلة الفعلية لتحقق مانع عنها كالشفاعة والتوبة.

وبهذا اتضح عدم التنافي بين قانون العدل الإلهي، وقانون الشفاعة.

وحاصل ذلك: إنّ «الشفاعة» ما هي إلاّ «فضل ورحمة من الله» جعلها عزّ

(1) مسند أحمد ٥ : ١٤٩ وقال الأرنؤوط : اسناده حسن.

(2) مسند أحمد ٢ : ٣٠٧ و ٥١٨ حديث صحيح وقال الحافظ في الفتح ١١ / ٤٣٣ صححه ابن حبان.

وجل للمؤمنين، وبها وقع الفصل بين المؤمن والكافر، غير أنّها «رحمة» منه، وأي تعارض بين «الرحمة» و «العدل»؟

إنّ الوعد الإلهي بقبول الشفاعة بحق بعض عباده يختص بأولئك الذين حددهم بصورة عامة داخل دائرة ومساحة الإيمان به وكتبه ورسله.

ومن هنا فإنّ رفع العقوبة عن المؤمن المرتكب للذنب هو نوع من التفضّل الإلهي على عباده المؤمنين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خُيّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أُمتي الجنّة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين؟ لا، ولكنّها للمذنبين الخطائين المتلوّثين»[1].

أما إنزال العقاب على المشركين والكافرين فقد تقدّم بها الوعيد الإلهي، ومن هنا فإن الأنبياء والأوصياء والذين ارتضى سبحانه وتعالى شفاعتهم، لا يشفعون أصلاً في الكافرين أو المشركين أو الذين وعد الله سبحانه وتعالى بخلودهم في جهنم، ويتضح من هذا الرد أننا أمام صنفين من الناس، صنف آمن وأذنب.. وصنف كفر وأشرك، ومن هنا فإنّ افتراض أن يطّرد الجزاء وينطبق من ناحية «الهوية» على الصنفين معاً هو افتراض غير صحيح.

نعم الإشكال يرد فيما لو تمّ رفع العقاب عن فرد من الصنف الأول ولم يُرفع عن فرد آخر من نفس الصنف مع أنهما متساويان في الصفات تماماً.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ «وقوع الشفاعة وارتفاع العقاب.. وذلك إثر عدّة من الأسباب، كالرحمة والمغفرة والحكم والقضاء وإعطاء كلّ ذي حق حقه، والفصل في القضاء، لا يوجب اختلافاً في السنّة الجارية وضلالاً عن الصراط المستقيم»[2].

الإشكال الثالث:

إنّ الشفاعة المعروفة لدى الناس هي: أن يدعو المشفوع عنده إلى فعل شيء أو ترك الفعل الذي حكم به على المشفوع له، وهذا أمرٌ لا يمكن حصوله، إلاّ إذا حدث للمشفوع عنده عِلمٌ جديد

(1) سنن ابن ماجة ٢ : ١٤٤١ / ٤٣١١. ومسند أحمد ٦ : ٢٣ و٢٤ و٢٨ والحديث صحيح على شرط مسلم إلى قوله فاخترت الشفاعة أما الزيادة فقد تفرد بها. وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف.

(2) الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي ١ : ١٦٤.

يوجب عنده قبول الشفاعة في المشفوع له، أو أنه ينصرف عن إجراء الحكم الذي قرره رعاية للشفيع ومنزلته عنده ولو كان على حساب الحق والعدل والإنصاف، وهذه افتراضات لا يجوز نسبتها إلى الله (تعالى عن ذلك علواً كبيراً).

والجواب عليه:

فهو افتراض باطل من أساسه، لأنّ الفعل الذي قرّره سبحانه وتعالى — وهو العقاب — لم يكن أثراً غير قابل للانفكاك عن «الذنب»، لما تقدّم من أنّ الذنب ليس إلاّ مقتضياً للعقاب، فالشفاعة — بعد أنْ كان الذنب مجرد مقتضٍ للعقاب — تقدّم الوعد بها، وأثبتها القرآن الكريم بصورها وحدودها ومواصفات أشخاصها، لا تمثل عند قبولها انصرافاً عن الفعل الذي قرره سبحانه وتعالى، بل هي وفاء لما قرره بحق عباده، وهي بعد هذا لا توجب معنى حصول علم جديد بعد أن تقدم العلم بها حق ذكرها سبحانه وتعالى وأوضح الطريق والباب الذي يمكن للمؤمنين المذنبين أن يلجوه وصولاً إلى رضوانه تعالى. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد سبق في علمه، مصائر عباده وحالهم في الدنيا والآخرة، وبعد هذا العلم الشامل، فليس في قبول الشفاعة علم جديد يحصل عنده، (تعالى عن ذلك علواً كبيراً).

ويتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿.. يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [1].

الإشكال الرابع:

إنّ معرفة الناس بثبوت الشفاعة لمن أذنب بواسطة الأنبياء والصالحين يخلق عندهم الجرأة على ارتكاب الذنب على أمل نيل الشفاعة منهم يوم القيامة.

وهذا الأمر سيؤدي إلى عبثية الأحكام المتعلقة بالجزاء حيثُ سيضطرب النظام الاجتماعي ويشيع الفساد في الناس وتنتهك أحكام الله التي وضعها لعباده.

والجواب عليه:

إنّ مشكلة هذا الإشكال وضعفه: هو أنه تجاهل ظاهرة مهمة في الآيات القرآنية التي تناولت بصورة مباشرة موضوع الشفاعة وقبولها، وكذلك الآيات التي تحدثت عن خلود الكافرين في النار.. وهذه الظاهرة هي: إنّ آيات الشفاعة لم تُعيّن على سبيل التحديد أفراد الناس ومجاميعهم ممن تنالهم الشفاعة، كما أنّها لم تُعيّن الذنوب التي تُقبل الشفاعة فيها..

فإذا كان الأمر كذلك، فكيف تطمئن نفسٌ أن تنالها الشفاعة، وكيف

(1) الرعد: 39.

تطمئن أيضاً إلى أن ذنبها الذي ترتكبه هو من الذنوب التي تقبل بها الشفاعة.

ومن هنا فإنّ النفس والحال هذه ستبقى متعلقة، وجلة تتملكها الخشية من ارتكاب الذنب والمعصية خوفاً أن لا تكون ممن تنالها الشفاعة، أو أن يكون ذنبها مما لا تقبل فيه الشفاعة.

أما الآيات الشريفة التي تحدثت عن الكافرين وخلودهم في النار وأنواع العذاب، وعدم غفران ذنوبهم، فإنها شخّصت الإطار العام للصفات والأفعال التي إذا تميّز بها الإنسان فإنّه يدخل النار، ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [1].

والآية كما ترى تتحدث عن المغفرة يوم القيامة، وأنّها لا تنال الذين ماتوا وهم مشركون.

وعلى هذا فكيف تكون الشفاعة موجبة لجرأة الناس على الذنوب والمعاصي؟ مع أنّ ارتكاب الذنب من قبل المؤمن لابدّ أن تعقبه التوبة طلباً للغفران.. لأنّ هذه صفة المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، فإنه دائماً يراقب نفسه لئلا يقع في معصية، فإنْ استولى عليه الشيطان وأغواه وارتكب المعصية تذكّر وتاب إلى الله توبةً نصوحاً فضلاً عن أن يصرّ على الذنب الواقع منه.

فالإيمان ليس لوناً نضفيه على الإنسان، بل هو يتجسد في المحتوى الداخلي للإنسان وعلاقته بربه وسلوكه الاجتماعي المنضبط بأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه.

ولعل ما يشير إلى ذلك الآية الشريفة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [2].

فالآية القرآنية هنا تتحدث عن صنف من الناس حددت طبيعة سلوكهم ولم تعيّن أشخاصهم.. كما أنّها لم تحدد نوع الفاحشة أو الظُلم.. ولكنها تشير إلى أنّهم بعد ارتكابهم الظلم والفاحشة يذكرون الله ويستغفرون لذنوبهم وأنّهم لا يُصرّون عليها.. هؤلاء الناس يغفر الله ذنوبهم، ولولا الاستغفار لما نالوا هذا الوعد الإلهي بغفران ذنوبهم.

(1) النساء: 48 و 116.

(2) آل عمران: 135.

الإشكال الخامس :

إنّ العقل قد يحكم بإمكانية وقوع الشفاعة بالإفادة من آيات القرآن الكريم، ولكنه لا يستطيع أن يحكم بفعلية وقوعها خصوصاً وأنّ في القرآن ما ينفي الشفاعة مطلقاً كقوله تعالى : ﴿.. لا بَيْعٌ فيه وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ [1]، وبعضها الآخر يقيّد الشفاعة بقيود كما في قوله تعالى: (إلا بإذنه..) [2]، وقوله تعالى ﴿.. إلاّ لِمَنْ ارْتَضَى..﴾ [3]، ولكن هذه الآيات وغيرها لا تدل دلالة قطعية على وقوع الشفاعة وحصولها اليقيني، فالقرآن الكريم ينفي الشفاعة آونة، ويقيّدها أُخرى برضا الله سبحانه وتعالى، ويذكر القرآن الكريم مرة أخرى أنّ الشفاعة لا تنفع، كقوله تعالى ﴿... فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [4].

والجواب عليه :

إنّ ملخص الجواب هو أنّ الآيات التي يُستدل بها على نفي الشفاعة، لا تنفي الشفاعة مطلقاً، بل إنّها تنفيها عن بعض الناس وقد وردت هذه الاستثناءات في آيات عديدة أما فيما يتعلق بالقيود الموجودة في حصول الشفاعة من جهة، وقبولها من جهة أخرى، فإنّ ذلك لا يعني نفيها بل يؤكد وقوعها وإثباتها، على خلاف ما ادّعاه النافون من أنّها لا تنفع، مُستدلّين على ذلك، بقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [5].

وهذا الاستدلال غير صحيح ؛ لأنّ سياق الآيات التي تسبق هذه الآية تتحدث كلّها عن المجرمين المستقرين في سقر، حيثُ تقول الآيات: ﴿كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾

ثم تقول الآيات الشريفة : ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [6].

وهكذا يتضح من خلال هذا السياق : إنّ الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين هم هؤلاء المستقرون في سقر الذين لم يكونوا من المُصلّين، وكانوا يكذّبون بيوم الدين، حتى أتاهم اليقين حين وجدوا أنفسهم في سقر فلا تنفعهم بعد صفاتهم تلك شفاعة الشافعين.

بعد هذا العرض السريع للإشكالات التي يوردها النافون للشفاعة والردود عليها، يتضح أنّ الشفاعة ليست من الأمور التي تقع ضمن دائرة الاثنينية في الجزاء الإلهي، والمقصود بالاثنينية «تعدد الجزاء مع وحدة الفعل» ولا هي متناقضة مع عدالة الله بل هي تثبيت لهذا العدل باعتبارها كانت وعداً تقدم والجزاء به هو وفاء لذلك الوعد.

كما أنّها ليست ناتجة عن علم جديد أو انصراف عن فعل مقرر من قبل، بل هي علم سابق وفعل مقرر، وهي أيضاً لا توجب الجرأة على المعصية بل توجب الحيطة والحذر، والخشية من ارتكاب الذنب، إذ لم تُصرح الآيات بجميع الذنوب التي تقبل فيها الشفاعة.

وهي أخيراً ثابتة موجودة، لكنها لا تنال بعض الأصناف من الناس الذين وردت صفاتهم في القرآن الكريم، وأنّها لا تحصل إلاّ بإذن الله تعالى ورضاه .

(1) البقرة: ٢٥٤ .
(2) البقرة: ٢٥٥ .
(3) الأنبياء: ٢٨ .
(4) المدثر : ٤٨ .
(5) المدثر: ٤٨
(6) المدثر : ٣٨ ــ ٤٨ .

الفصل الثالث

الشفعاء والمشفّع لهم

أولاً : الشفعاء :

هل حدد القرآن الكريم الشفعاء ؟

وهل أخبر عن أسمائهم أو عن صفاقم ؟

إنّ التدبر في آيات القرآن الكريم يوضّح أنّ الله سبحانه وتعالى لم يحدد في الآيات القرآنية الشريفة وفي آيات الشفاعة اسم أحد من الشافعين، لكن القرآن الكريم أشار إلى مجموعة من الصفات التي إن توفرت في أحد فهو من الشفعاء بعد أن يأذن الله له في ذلك .

ووجدت من خلال دلالة الآيات القرآنية الشريفة أنّ الأنبياء يشفعون، والملائكة يشفعون، والمؤمنون الصالحون يشفعون أيضاً، والعمل الصالح يشفع لصاحبه كذلك.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يشفع النبيّون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبّار : بقيت شفاعتي» [1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» [2] .

(1) صحيح البخاري ٩ : ١٦٠ ب / قول الله (وجوه يومئذ ناضرة) .
(2) سنن ابن ماجة ٢ : ١٤٤٣ | ٤٣١٣ وفيه عنبسه وهو لين الحديث . وراجع الخصال، للشيخ

وإلى جانب ذلك فإنّ تعلّم القرآن يعطي لصاحبه الأهلية لأن يشفع، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من تعلم القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرّم حرامه أدخله الله به الجنة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار...» [1] ،وجاء في نهج البلاغة : «إنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه» [2].

وإنّ العمل الصالح والالتزام بالتعاليم الإسلامية يعطي لصاحبه الأهلية لأن يشفع، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ أقربكم مني غداً وأوجبكم عليَّ شفاعة : أصدقكم لساناً، وأدّاكم لأمانتكم، وأحسنكم خلقاً، وأقربكم من الناس» [3].

وسأعرض بإيجاز الآيات القرآنية الشريفة التي تعطي الدلالة الواضحة على كلّ صنف من أولئك الشفعاء.

أ ــ الأنبياء : فالآية الشريفة التالية تؤكد أنّ الأنبياء يشفعون قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [4] وفي الآية أعلاه قيود دقيقة لابدّ من الالتفات إليها وهي :

جاء في تفسير (ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) أي بخسوها حقّها بإدخال الضرر عليها بفعل المعصية من استحقاق العقاب، وتفويت الثواب بفعل الطاعة، وقيل (ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بالكفر والنفاق (جَاءُوكَ) تائبين مقبلين عليك مؤمنين بك (فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ) لذنوبهم ونزعوا عمّا هم عليه (وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ) أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم (لَوَجَدُوا اللَّهَ) أي لوجدوا مغفرة الله لذنوبهم [5].

وإلى جانب الآية المتقدمة، فالآية التالية توضح أيضاً شفاعة الرُسل قال تعالى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا

الصدوق : ١٤٢ بلفظ آخر : «ثلاثة يشفعون إلى الله عزّ وجل فيشفعون . الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء» .

(١) سنن الترمذي ٤ : ٢٤٥ وإسناده ضعيف تفرد به عيسى بن سا لم وقال الترمذي : غريب وقال الألباني ضعيف جداً .

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٢ : ٩٢ .

(٣) تيسير المطالب في أمالي الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، للسيد يحيى بن الحسين: ٤٤٢ ــ ٤٤٣ .

(٤) النساء : ٦٤ .

(٥) مجمع البيان، للطبرسي ١ : ٨٧ .

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [1]

والآية تشير إلى الرسل الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى البشر فقال الكافرون : إنهم أبناء الله، لكن القرآن الكريم يصرّح بأنهم عباد الله أكرمهم بالرسالة وإنهم لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى سبحانه..

وقد تنطبق هذه الآية على الملائكة، فقد تكرّر في القرآن الكريم وفي مواضع عديدة الإشارة إلى قول الكافرين والمشركين بأنّ الملائكة بنات الله، تعالى سبحانه عن ذلك علواً كبيراً .

ب ــ الملائكة : وأما شفاعة الملائكة فتدلّ عليها الآية التالية قال تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى..﴾ [2].

ودلالة الآية جليّة وواضحة على أنّ الملائكة تشفعُ بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

ت ــ المؤمنون : وأما شفاعة المؤمنين والشهداء فتدلّ عليها الآية الشريفة قال تعالى : ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ...﴾ [3].

والذين شهدوا بالحق هم المؤمنون الصالحون الذين جعلهم الله شهوداً على أممهم مع الأنبياء والأوصياء.

وقد جعل الله المؤمنين مع الشهداء حيثُ قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ...﴾ [4].

وقبل أن أغادر هذا الفصل ألفت نظر القاريء الكريم إلى ظاهرة مهمة تكررت في الآيات القرآنية الشريفة التي تحدثت عن الشفيع أو المشفوع له، وهي ظاهرة «الرضى» الإلهي عمن يريد أن يشفع وعمن يراد أن يُشفع له، واعتبار ذلك الرضى قيداً لازماً لا تؤتي الشفاعة ثمارها بدونه ، فالشفيع يجب أن يرضى الله شفاعته لتكون في محلها . والمشفوع له يجب أن يكون مرضيّاً عنده سبحانه وتعالى ليقبل فيه شفاعة الشافعين .

وبناء على هذا لو تدبرت الآيات القرآنية الكريمة والتي أشارت إلى «رضى» الله تعالى عن بعض عباده، تجدها تشير إلى مواصفات غاية في السمو

(١) الأنبياء: ٢٦ ــ ٢٨ .

(٢) النجم : ٢٦ .

(٣) الزخرف : ٨٦ .

(٤) الحديد : ١٩ .

والتألق.. وهنا أورد أمثلة من الآيات القرآنية التي ذكرت بالصراحة «رضى» الله عن بعض عباده الصالحين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١). والآية الشريفة هنا تشير بصراحة إلى «الصادقين» بكلّ ما لكلمة الصدق من معنى.

وقوله عزّ شأنه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣).

وفي الآية الكريمة إشارة صريحة إلى المؤمنين الحقيقيين الذين لا يُلقون بالود لأعداء الله والرسول ولو كان هؤلاء الأعداء آباء أو أبناء أو إخواناً لهم، وهذه الصفة هي من صفات المبدأية والرسالية العالية التي يجب أن يتصف بها المؤمنون.

وقوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٤).

أحسب أنّ المتدبر في مضامين هذه الآيات الشريفة سيكشف أمامه أفقاً واسعاً من المعرفة بهؤلاء الذين هم خالدون في جنات تجري من تحتها الأنهار أبداً، وأنّ الله عزّ وجل قد رضي عنهم، وأنّهم رضوا عنه.

وهنا هي قمة العظمة والسمو في الوصف والبيان.. فمن هم هؤلاء الذين رضوا عنه

(١) المائدة: ١١٩ .
(٢) التوبة: ١٠٠ .
(٣) المجادلة: ٢٢ .
(٤) البينة: ٧ ـ ٨ .

إنّهم الصادقون في إيمانهم وأعمالهم مع الله الذين عملوا الصالحات وخشوا الله والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعون لهم «بإحسان»، والمؤمنون الذين لايوادّون من حادّ الله ورسوله.

ثانياً: المشمولون بالشفاعة:

لقد عرفت فيما تقدّم من البحث أنّ الكافرين ــ بشكل خاص ــ والذين هم في النار خالدون، لا تنالهم الشفاعةُ مطلقاً بدلالة الخلود في النار أبداً.

إذن فمن هم أُولئك الذين تنالهم الشفاعة؟ ومن هم الذين لا تنالهم؟

أ ــ المؤمنون المذنبون: السؤال الذي يُطرح هنا هو أنّ مفهوم الشفاعة يعني غفران الذنب ورفع العقاب المستتبع له، فكيف يمكن الجمع إذن بين صفة الإيمان بالله واليوم الآخر وبين صفة ارتكاب الذنب ومقارفة المعصية؟

وللجواب على ذلك أقول: إنّ للمؤمنين درجات بما امتلك كل مؤمن من الصفات، وقد أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة إلى حقيقة التفاوت والدرجات بين المؤمنين، مثل قوله تعالى: ﴿..لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١).

والتأمل في الآية الشريفة الآنفة يكشف عن عدّة أمور مهمة، منها: أنّ القاعدين عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم مع عدم وجود ما يمنعهم من عذر شرعي من نقص في الأعضاء أو فقر لا يتساوون مع المجاهدين، لكنّ الله وعد كليهما الحسنى في الآخرة، لكنّ الله سبحانه وتعالى فضّل المجاهدين على القاعدين من ناحية الأجر والثواب، ووصفه بأنّه أجرٌ عظيم. أنّ المؤمن يذنب لكنه يستغفر الله ويتوب، وهو أيضاً يحتاج إلى الشفاعة، فقد سُئل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن: المؤمن هل له شفاعة؟ قال: «نعم»، فقال رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: «نعم، إنّ للمؤمنين خطايا وذنوباً وما من أحد إلاّ يحتاج إلى شفاعة محمد يومئذ» (٢).

(١) النساء: ٩٥ .
(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣١٤ .

ولا محل هنا بعدما تقدم للاعتراض: بأنّ المؤمنين لا يكونون مؤمنين حتى يتحركوا بنفس المستوى من الفعل عند اتحاد الداعي للفعل، لأنّ هذا الاعتراض تغافل عن مقتضيات الطبيعة البشرية، والله أعلم بعباده وقوله عزّ شأنه يوضح قانوناً من قوانين الخلقة وبعد هذا.. فالتفاوت بين البشر حقيقة ثابتة لا يمكن نكرانها وإن كان بين المؤمنين.

كما أنّ الحديث المروي عن الإمام جعفر الصادق يكشف صراحة أنّ للمؤمنين خطايا وذنوباً، وإنّهم بحاجة إلى شفاعة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم يوم القيامة.

وأنقل القاريء الكريم إلى التدبر في الآيات القرآنية الشريفة التالية:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (١).

ومحل الشاهد في الآيات الشريفة هو التصريح بأنّ الذين يستغفرون الله لذنوبهم بعد فعل الفاحشة أو ظلم النفس ولم يصرّوا على الاستمرار على ذلك الفعل فإنّ الله وعدهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها..

ويتضح أنّ عدم الإصرار على الذنب ومن ثم الاستغفار والتوبة هي من صفات المؤمنين؛ لأنّ الله لا يعدُ أحداً بالجنة والنعيم إنْ لم يكن مؤمناً مرضيّاً عند الله سبحانه وتعالى .ولكن المؤمن إذا ارتكب معصية أو اقترف إثماً وأصرّ عليه، فهل يبقى على صفة الإيمان بمعناه الحقيقي الذي يريده سبحانه وتعالى متجسداً عند الإنسان بالفعل والسلوك والعمل وليس بمجرد الادعاء والعادة؟

وبدون شك، فإنّ الإصرار على الذنب قد يُخرج المؤمن عن صفة الإيمان الحقيقي التام «وذلك لأنّ الإصرار على الذنب يستوجب الاستهانة بأمر الله والتحقير لمقامه سواء كان الذنب المذكور من الصغائر أو الكبائر..» (٢).

---

(١) آل عمران: ١٣٣ – ١٣٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي ٤: ٢١.

وهل هناك عاقل يقول: إنّ من يستهين بأوامر الله، هو ومن يمتثل أوامره ونواهيه كلها كما أمر ونهى، على حد سواء؟

وبعد كل ما تقدم أصبح واضحاً وجليّاً أنّ المؤمن إنما يخرج عن ربقة الإيمان التام الحقيقي بالإصرار على الذنب والمعصية، ويغدو واضحاً أيضاً أنّ المؤمن قد يُذنب الذنب الكبير أو الصغير، لكنه يُسارع إلى الاستغفار والتوبة فيتوب الله عليه، وقد تقدّم فيما مضى أنّ الشفاعة هي لأهل المعاصي من المؤمنين.

ب – المؤمنون الذين يدخلون النار: وكما تنفع الشفاعة المؤمنين في القيامة ليغفر لهم الله ذنوبهم فيدخلون الجنة كذلك تنفعهم الشفاعة حتى بعد الدخول في النار فيخرجون منها، وهذا ما تفيده الأحاديث النبوية الشريفة المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي تتحدث عن صنف من المؤمنين يتمّ إخراجهم من النار بشفاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين الصالحين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يشفع الأنبياء في كلّ من يشهد أن لا إله إلاّ الله مخلصاً، فيخرجونهم منها..» (١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة» (٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليخرجنّ قوم من أُمتي من النار بشفاعتي يُسمون الجهنميين..» (٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث: «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناسٌ أصابتهم نارٌ بذنوبهم أو بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أُذن في الشفاعة فيخرجون ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ» (٤).

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «مذنبو أهل التوحيد لايُخلّدون في النار ويُخرجون منها والشفاعة جائزة لهم..» (٥).

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٢ وإسناده حسن.

(٢) صحيح مسلم ١: ١٢٢ خ٢٨٠ – ب/أدنى أهل الجنة منزلة.

(٣) سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤٣ وإسناده صحيح.

(٤) مسند أحمد ٣: ٧٩ وصحيح مسلم ١/ ٤٣٠ ح٢٧١ب اثبات الشفاعة وإخراج الموحدين.

(٥) عيون أخبار الرضا ٢: ١٢٥.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله : «... فإذا فرغ الله عزّ وجل من القضاء بين خلقه وأخرج من النار من يُريد أن يُخرج، أمر الله ملائكته والرُسل أن تشفع فيعرفون بعلاماتهم : إنّ النار تأكل كل شيء من ابن آدم إلاّ موضع السجود..»(١).

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا ميّز أهل الجنة وأهل النار، فدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار قامت الرُسل وشفعوا...»(٢).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : «يقول الرجل من أهل الجنة يوم القيامة أي ربي عبدك فلان سقاني شربة من ماء في الدنيا فشفعني فيه، فيقول اذهب فأخرجه من النار فيذهب فيتجسس في النار حتى يخرجه منها»(٣).

وقد اتضح من الروايات أن الشفاعة إنما تكون بعد الفراغ من الحساب فإمّا تنفع للحيلولة دون دخول النار وإما تنفع للحيلولة دون البقاء فيها.

(١) سنن النسائي ٢ : ١٨ باب موضع السجود والحديث صحيح.

(٢) مسند أحمد ٣ : ٣٢٥ والحديث صحيح على شرط مسلم.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي ١٠ : ٣٩٢ والحديث ضعيف.

ثالثاً: غير المشمولين بالشفاعة

قد عرفت أنّ الشفاعة تخص المؤمنين وأنّ الكافرين محرومون منها فلا تنفعهم لا قبل الدخول في النار ولا بعده، وقد تكرر الوعد الإلهي في القرآن الكريم لعدة أصناف من الناس بأن يكونوا خالدين في النار لا تنالهم شفاعة الشافعين.

فقد جاءت كلمة «خالدون» في العذاب أو النار أو جهنم في ثمانية وثلاثين آية عبر ثمانية وعشرين سورة قرآنية شريفة.

ومع أنّ البحث في هذه الآيات الشريفة ليس من مهمة هذا البحث المختصر، إلاّ أنّ مطالعتها والقاء نظرة على بعض مضامينها ومدلولاتها تنفع من جهة ثانية في التأكيد على أن المؤمنين يقعون خارج إطار الذين وعدهم الله سبحانه وتعالى بأن يكونوا من الخالدين في النار وعدم الخلود في النار يعني الخروج منها أو يستوهبون منها وهذا الطريق يؤدي إلى الاعتقاد بوجود الشفاعة وثبوتها.

وفيما يلي سأستعرض تصنيفاً أولياً للآيات القرآنية التي تحدثت عن الخالدين في النار، حسب الصفات التي وصفهم الله سبحانه وتعالى بها في قرآنه الكريم.

أ ــ الكافرون

١ ــ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٤)

(٤) البقرة : ٣٩.

٢ ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾(١)

٣ ــ ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢)

٤ ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣)

٥ ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾(٤)

٦ ــ ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٥)

(١) البقرة ١٦١ ــ ١٦٢.

(٢) البقرة : ٢٥٧.

(٣) آل عمران: ١١٦.

(٤) النساء : ١٦٨ ــ ١٦٩.

(٥) الرعد : ٥.

٧ ــ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(٦)

٨ ــ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٧)

٩ ــ ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾(٨)

١٠ ــ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٩)

١١ ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾(١٠)

(٦) الأحزاب : ٦٤ ــ ٦٥.

(٧) الزمر: ــ ٧٢.

(٨) الحشر : ١٦ ــ ١٧.

(٩) التغابن : ١٠.

(١٠) البينة : ٦.

١٢ ـ ﴿ وعدَ اللهُ المنافقين والمنافقات والكفّار نارَ جهنّم خالدين فيها هي حسبُهُم ولعنهُم اللهُ ولهُم عذابٌ مُقيم ﴾(١)

١٣ ـ ﴿ لُعنَ الّذين كفرُوا من بني إسرائيل على لسان داوُدَ وعيسى ابن مريم ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدُون * كانُوا لا يتناهونَ عن مُنكرٍ فعلوهُ لبئسَ ما كانُوا يفعلون * ترى كثيراً منهُم يتولّونَ الّذين كفرُوا لبئسَ ما قدّمت لهُم أنفسُهُم أن سخطَ اللهُ عليهم وفي العذاب هُم خالدون ﴾(٢)

ب ـ **المرتدّون** :

١ ـ ﴿ ...ومن يرتددْ منكُم عن دينه فيمُتْ وهُو كافرٌ فأُولئك حبطتْ أعمالُهُمْ في الدُّنيا والآخرة وأُولئك أصحابُ النّار هُمْ فيها خالدُون ﴾(٣)

٢ ـ ﴿ كيفَ يهدي اللهُ قوماً كفرُوا بعدَ إيمانهم وشهدُوا أنّ الرّسُول حقٌّ وجاءهُمُ البيّناتُ واللهُ لا يهدي القومَ الظّالمين * أُولئك جزاؤُهُم أنّ عليهم لعنةَ الله والملائكة والنّاس أجمعين * خالدين فيها لا يُخفّفُ عنهُمُ العذابُ ولا هُم يُنظرُون ﴾(٤)

ت ـ **المشركون** :

١ ـ ﴿ ما كانَ للمُشركين أن يعمُرُوا مساجدَ الله شاهدين على أنفسهم بالكُفر أُولئك حبطت أعمالُهُم وفي النّار هُم خالدُون ﴾(٥)

٢ ـ ﴿ إنّكُم وما تعبُدُون من دُون الله حصبُ جهنّم أنتُم لها واردُون * لو كان هؤُلاء آلهةً ما وردُوها وكُلٌّ فيها خالدُون ﴾(٦)

٣ ـ ﴿ والّذين لا يدعُون مع الله إلهًا آخر ولا يقتُلُون النّفس الّتي حرّم اللهُ إلّا بالحقّ ولا يزنُون ومن يفعل ذلك يلقَ أثامًا * يُضاعفْ لهُ العذابُ يومَ القيامة ويخلُدْ فيه مُهانًا ﴾(٧)

٤ ـ ﴿ إنّ الّذين كفرُوا من أهل الكتاب والمُشركين في نار جهنّم خالدين فيها أُولئك هُم شرُّ البريّة ﴾(٨)

٥ ـ ﴿ ويوم يحشُرُهُم جميعًا يا معشرَ الجنّ قد استكثرتُم من الإنس

(١) التوبة : ٦٨ .
(٢) المائدة : ٧٨ ـ ٨٠ .
(٣) البقرة : ٢١٧ .
(٤) آل عمران : ٨٦ ـ ٨٨ .
(٥) التوبة : ١٧ .
(٦) الأنبياء : ٩٨ ـ ٩٩ .
(٧) الفرقان : ٦٨ ـ ٦٩ .
(٨) البينة : ٦

وقال أولياؤُهُم من الإنس ربّنا استمتعَ بعضُنا ببعضٍ وبلغنا أجلنا الّذي أجّلتَ لنا قال النّارُ مثواكُم خالدين فيها إلّا ما شاء اللهُ إنّ ربّك حكيمٌ عليمٌ ﴾(١) .

ث ـ **المرابون** :

﴿ الّذين يأكُلُون الرّبا لا يقُومُون إلّا كما يقُومُ الّذي يتخبّطُهُ الشّيطانُ من المسّ ذلك بأنّهُم قالُوا إنّما البيعُ مثلُ الرّبا وأحلّ اللهُ البيعَ وحرّمَ الرّبا فمن جاءهُ موعظةٌ من ربّه فانتهى فلهُ ما سلفَ وأمرُهُ إلى الله ومن عاد فأُولئك أصحابُ النّار هُمْ فيها خالدُون ﴾(٢)

ج ـ **العاصون لله ولرسوله**

١ ـ ﴿ ومن يعصِ اللهَ ورسُولهُ ويتعدّ حُدُودهُ يُدخلهُ نارًا خالدًا فيها ولهُ عذابٌ مُهينٌ.. ﴾(٣)

٢ ـ ﴿ ألمْ يعلمُوا أنّهُ من يُحاددِ اللهَ ورسُولهُ فأنّ لهُ نارَ جهنّم خالدًا فيها ذلك الخزيُ العظيمُ ﴾(٤)

٣ ـ ﴿ ..ومن يعصِ اللهَ ورسُولهُ فإنّ لهُ نارَ جهنّم خالدين فيها أبدًا ﴾(٥)

ح ـ **المكذّبون والمستكبرون** :

١ ـ ﴿ ..والّذين كذّبُوا بآياتنا واستكبرُوا عنها أُولئك أصحابُ النّار هُمْ فيها خالدُون ﴾(٦)

٢ ـ ﴿ ...وقد آتيناكَ من لدُنّا ذكرًا * من أعرضَ عنهُ فإنّهُ يحملُ يومَ القيامة وزرًا * خالدين فيه وساءَ لهُم يومَ القيامة حملًا ﴾(٧)

٣ ـ ﴿ الّذين كذّبُوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلنا فسوفَ يعلمُون * إذ الأغلالُ في أعناقهم والسّلاسلُ يُسحبُون * في الحميم ثُمّ في النّار يُسجرُون * ثُمّ قيلَ لهُم أين ما كُنتُم تُشركُون * من دُون الله قالُوا ضلّوا عنّا بل لم نكُن ندعُو من قبلُ شيئًا كذلك يُضلّ اللهُ الكافرين * ذلكُم بما كُنتُم تفرحُون في الأرض بغير الحقّ وبما كُنتُم تمرحُون * ادخُلُوا أبوابَ جهنّم خالدين فيها فبئسَ مثوى المُتكبّرين ﴾(٨)

٤ ـ ﴿ ..فذُوقُوا بما نسيتُم لقاءَ يومكُم هذا إنّا نسيناكُم وذُوقُوا عذابَ الخُلد بما كُنتُم تعملُون ﴾(٩)

(١) الأنعام ٦: ١٢٨ .
(٢) البقرة : ٢٧٥ .
(٣) النساء : ١٤ .
(٤) التوبة : ٦٣ .
(٥) الجن : ٢٣ .
(٦) الأعراف : ٣٦ .
(٧) طه : ٩٩ ـ ١٠١ .
(٨) غافر : ٧٠ ـ ٧٦ .
(٩) السجدة: ١٤

٥ ـ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(١).

خ ـ المنافقون والمنافقات :

١ ـ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾(٢).

٢ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣).

د ـ قاتلوا المؤمنين عمدا :

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(٤).

ذ ـ الظالمون :

١ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(٥).

٢ ـ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٦).

ر ـ المجرمون :

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(٧).

ز ـ الذين كسبوا السيئات :

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٨).

س ـ الذين خفت موازينهم :

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(٩).

---

(١) فصلت: ٢٨
(٢) التوبة: ٦٨
(٣) المجادلة: ١٤ ـ ١٧
(٤) النساء: ٩٣
(٥) يونس: ٥٢
(٦) النحل: ٢٨ ـ ٢٩
(٧) الزخرف: ٧٤
(٨) يونس: ٢٧
(٩) المؤمنون: ١٠٣

ومن خلال التصنيف المتقدم نرى أنّ الذين هم خالدون في العذاب أو النار ليسوا من المؤمنين الذين تتوفاهم الملائكة وقد تابوا وأصلحوا واستغفروا الله لذنوبهم ولم يُصروا على ما فعلوا.

وهذا يدعونا إلى الاعتقاد باستحقاق المؤمنين للشفاعة سواء باستيهابهم من العذاب أو بإخراجهم من النار..

الخاتمة

وبعد فهذا بحث في موضوع «الشفاعة في الكتاب والسنّة بين الإثبات والنفي» عشت فيه ومن خلاله مع كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وقد وضعت أمام القارئ مقدمة ضمنتها وبينت فيها أن الشفاعة هي تفضل من الله تعالى، ودعوة مستجابة لنبينا ﷺ ادخرها ﷺ لأهل الكبائر من أمته، ثم تكلمت بعد ذلك عن مفهوم الشفاعة وعرضت الآيات القرآنية المتعلقة بها وكذلك الأحاديث النبوية.

ثم ذكرت آراء العلماء من أهل السنّة والشيعة وناقشت الإشكالات المثارة في هذا المقام. وكذلك ذكرت مسألة الشفعاء والمشمولين بالشفاعة والتزمت في تناولي لذلك كله (في الأعم الأغلب) قواعد أصول البحث العلمي من أسلوب واضح ومنهج سليم في العرض والتحليل.

وقد ظهرت لي بعض النتائج من خلال البحث في هذا الموضوع وهي ما يلي:

(١) أن الشفاعة شفاعتان:

شفاعة مثبتة: وهي خالصة وخاصة لأهل الإخلاص، ولا تُطلب إلا من الله عز وجل، فإنه كما مرّ بك آنفًا أنه لا يشفع

أحد لأحد إلا من بعد أن يأذن الرحمن- تبارك وتعالى- وأن يكون راضيًا عن المشفوع له، فإذا كان المشفوع له موحدًا نفعته بإذن الله شفاعة الشافعين. وشفاعة منفية- وهي التي تطلب من غير الله عز وجل.

(٢) أن الشفاعة إنما تُطلب يوم القيامة ممن يأذن الله له بها من الأنبياء والأولياء والصالحين.

(٣) أن ما ورد من النصوص في عدم قبول الشفاعة إنما يُحمل على المشركين وأشياعهم، أو على الشفاعة بدون إذنه تعالى.

(٤) أنه لا ينكر شفاعة النبي ﷺ لأهل الذنوب، إلا أهل البدع كالخوارج وغيرهم لأن عندهم من يدخل النار لا يخرج بشفاعة ولا غيرها.

(٥) أن شفاعة النبي ﷺ أو دعاؤه لهم نافع باتفاق المسلمين سواءً في ذلك شفاعته لأهل الذنوب حتى لا يعاقبهم الله عليها، أو حتى يخفف العقوبة عنهم، وكذلك شفاعته لغير المذنبين بزيادة الحسنات ورفع الدرجات.

(٦) أن الشفاعة في الآخرة نوع من أنواع التكريم لبعض من الناس على رؤوس الأشهاد وفيها- أي الشفاعة- نوع إظهار من العظمة.

(٧) أن الشفاعة لا يمكن أن تُنال إلا بعد تحقق الشروط الصارمة في المشفوع لهم.

(٨) أن لإثبات حقيقة وجود الشفاعة طريقين:

الأول : دلالة الآيات القرآنية الشريفة التي تحدثت عن الشفاعة وشروطها.

الثاني : دلالة عدم خلود المؤمنين المذنبين في النار، وأنهم يخرجون منها، ولابد لخروجهم من وسيلة ألا وهي الشفاعة.

(٩) أنه من خلال ما تقدم يتبين أن الذين هم خالدون في العذاب أو النار ليسوا من المؤمنين الذين تتوفاهم الملائكة وقد تابوا وأصلحوا واستغفروا لذنوبهم ولم يُصروا على ما فعلوا. وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد باستحقاق المؤمنين للشفاعة سواء باستيهابهم من العذاب أو بإخراجهم من النار.

(١٠) وكذلك أحذر كل الحذر من الفهم الخاطئ من أصحاب العقول القاصرة من أن يفهموا أمر الشفاعة فهمًا خاطئًا فيجترؤن على

اكتساب الخطايا اتكالاً على أمر الشفاعة ولا يتوبون من ذنوبهم فهذا من تسويل الشيطان والنفس والهوى.

وأملي في الله كبير أن أكون بهذا العمل قد أضفت إلى المكتبة التفسيرية للقرآن الكريم جهدًا أسأل الله – عز وجل- المثوبة له والأجر عنده وعليه، وحسبي في هذا المقام أنني بشر، أُصيب وأخطئ ما لم يحمني القدر، حيث لم يكن منزهًا عن ذلك إلا صاحب الروضة الشريفة والمقام المحمود محمدٌ ﷺ ، لذا أسأل الله عز وجل أن يكتبنى ممن تناله شفاعة الرسول الكريم ﷺ والمسلمين والمؤمنين إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين

فهرست المصادر والمراجع

– القرآن الكريم

١. أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآ للشنقيطى محمد الأمين طبعة دار عالم الكتب .

٢. الانتصاف فيما تضمّنه الكشاف من الاعتزال، للإمام ناصرالدين بن المنير الإسكندري – طبعة دار الكتب العلمية .

٣. أوائل المقالات في المذاهب المختارات، لمحمد بن محمد العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد، تعليق الزنجاني، تبريز، الطبعة الثانية، ١٣٧١هـ .

٤. بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار، لمحمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

٥. تأويلات أهل السُنّة، لأبي منصور الماتريدي السمرقندي طبعة دار الشعب ١٩٧٠ .

٦. التبيان في تفسير القرآن، لمحمد بن الحسن الطوسي، تصحيح أحمد شوقي، المطبعة العلمية، النجف الأشرف، ١٣٦٧هـ.

٧. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور . ط الدار التونسية بتونس ١٩٨٤ م .

٨. التعريفات، للشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

٩. تفسير العياشي، لمحمد ابن مسعود العياشي، تحقيق غلام رضا البروجردي، مؤسسة الوفاء، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٠٣هـ .

١٠. تيسير المطالب في أمالي الامام علي بن أبي طالب للسيد يحي بن الحسين – طبعة دار المعرفة بيروت – لبنان

١١. الجامع الصحيح، للإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول،تركيا.

١٢. الجامع الصحيح، لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

١٣. سنن ابن ماجة القزويني – طبعة دار احياء الكتب العربية – عيسى الحلبي

١٤. سنن الترمذي لأبي عيسى بن سورة الترمذى – طبعة دار الحديث – تحقيق احمد شاكر .

١٥. سنن النسائي السنن الكبرى، لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي الخرساني، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروى حسن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦. السيرة النبوية، للحلبي – طبعة المطبعة الازهرية ١٣٢٩هـ .

١٧. شرح صحيح مسلم، لأبي زكريا يحي بن شرف النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ، ١٩٢٩م.

١٨. شرح العقائد النسفية، للعلامة سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

١٩. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ .

٢٠. الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، لهاشم معروف الحسني – طبعة دار الكتب العلمية .

٢١. عيون أخبار الرضا– دار المعرفة بيروت – لبنان .

٢٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لأبي الفضل شهاب الدين أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار الريان للتراث

٢٣. كشف الارتياب لمحسن الأمين العاملي – مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة ١٤١٨هـ

٢٤. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٢٥. متن العقيدة الواسطية، لابن تيمية – شرح الفوزان – طبعة مطبعة المعارف

٢٦. مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسي – طبعة دار المعرفة بيروت – لبنان

٢٧. المسند، للإمام أحمد بن محمد ابن حنبل أبو عبد الله الشّيباني، وبهامشه منتخب كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ

٢٨. الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي – طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م

٢٩. النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد الدِّين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الجزري ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

الفهرس